رسالة من المغرب

قضية أبي زيد ومثقفو المغرب

من مراسل «الآداب» عبد الحق لبيض

ينبع اهتمام المثقفين المغاربة بقضية نصر حامد أبي زيد، على غرار إخوانهم مثقفي الوطن العربي، من إحساسهم بأن معركتهم واحدة ومهمتهم في التحدّي لرموز الجهل والقتل والإرهاب لاتقلّ في جسارتها وشراستها عن المعركة التي يواجهها المثقفون في مصر أو الجزائر أو السودان... وفي غيرها من البلدان العربية. فالإحساس بالمحنة واحد بين كل مثقفي الأمة العربية مهما اختلفت أوضاعهم وشروط عيشهم. وما تعرّض له نصر حامد أبو زيد ليس إلا وجهاً واحداً من وجوه الجور والقمع التي تطال المثقف العربي سواء في المشرق العربي أو في مغربه، محنته التي يواجهها يومياً في أشكال التضييق والتهميش والرقابة والإلغاء والحجز والمصادرة... وما إلى ذلك من أشكال تطاول أنظمة العسف وجماعات التحريم على حرية المثقف العربي وعلى استقلالية المؤسسة الثقافية وحرمتها.

إن قضية نصر حامد أبي زيد، كما فهمها جُل المثقفين المغاربة، هي قضية الحرية الفردية للإنسان العربي. تلك الحرية التي صانها الإسلام الصحيح ودافع عنها. كما تبنّتها كل المواثيق والأعراف الدولية. يقول الشاعر محمد بنيس[1]:

«إن الفصل بين زوجين، دون إرادة صادرة عن أي واحدٍ منهما، هو قتل رمزي. فأنا من المعارضين للقتل الرمزي مهما كان السبب والطريقة والمصدر»..

ويمكننا أن نحكم على القتل الجسدي بأنه سلوك منحطّ ولا أخلاقي يعبِّر عن أخلاقيات جماعات لا تُفكر إلا وفق حدّ السيف وإرهاب النفوس. لكن أن يكون القتل رمزياً، ومدثّراً، هذه المرّة، بشرعية مؤسسة القضاء المصري الحديث، فإنّه دليل على أننا نعيش زمن الرداءة التي بدأت تنخر استقلالية مؤسسة كنا نعتقد حتى يوم النطق بالحكم، بأنها الضامنة لأمان الفرد والراعية لحريته. فأن تصدر فتوى تتضمن، في أحد بنودها، إباحة دم نصر حامد أبي زيد، من مؤسسة حديثة وعصرية، فإن ذلك يعني أن المجتمع العربيّ كله يتعرض لقتل جماعي تشترك فيه الدولة بأجهزتها المزيفة، والجماعات «الظلامية» بأنغلاقية فكرها وضيق أفقها. يقول الشاعر محمد بنيس:

«إن الجرأة على إصدار حكم على عالم يفصله عن زوجته لسبب معرفي محض، هي بحدّ ذاتها منافية لأخلاقيات القضاء الحديث»

وما يزيد من دهشة الشاعر محمد بنيس في قضية نصر حامد أبي زيد أنها تقع في مصر التي يُغتال تاريخها المضيء من منصة القضاء:

«مصر رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق. مصر أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وصلاح أبو سيف. هذه الوجوه البارزة هي مصر التي علمتنا وفتحت لنا آفاق الحرية والعروبة. فكيف يمكن أن يصدر في دولةً هؤلاء أعلامها، حكم بتطليق عالم من زوجته إثباتاً لتكفيره؟ أين ما فعله هؤلاء وغيرهم من أجل تحديث ثقافة ومجتمع وقيم؟ هل ذهب كل ذلك هباء؟ ومن المسؤول؟»

هذه الصيحة التي أطلقها الشاعر محمد بنيس، مستفسراً، من خلالها، عن الأسباب الحقيقية وراء هذا الوضع المتردّي للعالم العربي ومتسائلاً عمّن يكون المسؤول عن كل هذا الخراب الذي يلاحق حياتنا، تجد صداها القويّ في الاعتراف الجريء الذي سيعلو به صوت الدكتور محمد برّادة، حين حمّل مسؤولية ما يقع، وبالدرجة الأولى، لتراجع قوى التنوير والفكر العقلاني في المجتمع العربي:

«أبداً لم يكن الفكر الظلامي قويّاً إلا لأن المتنورين تركوا له جزءاً من الكلمة يزيّفه ويحرّفه. ولم يواجهوا رمزيته برمزية مضادة تدعمها صراعات المجتمع الملموسة»[2].

وكان الشاعر محمد بنيس قد اتّخذ من قضية نصر حامد أبي زيد محوراً للتنديد بكل أشكال انحطاط الحياة الثقافية العربية، والتي تتجلّى عنده في العديد من المظاهر:

«إن إصدار هذا الحكم أحد مظاهر انحطاطنا الثقافي، وأحد أصناف الحكم التي تصدر في حق مثقفين عرب، وهي متعدّدة وذات مستويات، منها القتل الذي تفاقم عدد ضحاياه في الجزائر، ومنها اغتيال فرج فودة ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ في مصر. طرد الشاعر أدونيس. ومنها ما قيل عن نزع الجنسية عن الجواهري والبيّاتي. إنها مستويات تحثنا على التساؤل في زمن لم نعد نعرف كيف نسمّيه. ولا ما الهدف من المعرفة فيه. ولا هل لنا حقّاً حاجّة لكتّاب وعلماء يبحثون عن الحقائق ويدلوننا على أنفسنا وصورتنا عنها. ولا من سيضئ للعالم العربي طريقه بعد الانهيارات التي لا حدّ لها».

وفي الاتجاه التنديدي ذاته يقارب الدكتور محمد برّادة فداحة «منطق الساطور» الذي يتحكم في سيرورة حياتنا ويتعقّب خطواتنا ويحبس أنفاسنا. وقضية نصر حامد أبي زيد ليست في الحقيقة إلا تذكيراً بذلك:

«التّنين القابع وسطنا يتهددنا في كل حين رافعاً ساطوره ليضرب أبناء هذه الأمة المحبّين للحياة والمفجّرين لطاقاتها الإبداعية»

هذا التنين القادر وحده على امتلاك ناصية فهم الدين كوسيلة منه:

«لمحاربة من يستعملون العقل وينصتون إلى تحوّلات التاريخ ويؤولون على هدى من ذلك، صراعات المواطنين المتطلّعين إلى تشييد مجتمع يسوسه إسلام منفتح على عصره، وعقل محلّل لمعطياته وحوار ديمقراطي ينظم خطواته».

ويعطي الدكتور محمد برّادة للصراع الدائر بين نصر حامد أبي زيد وخصومه طبيعة إيديولوجية تؤرخ لصراع طويل داخل رحاب الجامعة بين فكر تنويري، يهدف إلى وضع أسس تنويرية لفهم الدين ومشكلات الإنسان المسلم المعاصر، و «فكر» منغلق لاهوتي يجنّد كل طاقاته من أجل عرقلة التحديث في الجامعة المصرية وتغميم الخطاب التنويري داخل مدرجاتها وبرامجها.

«الذين نظّموا الحملة على د. أبو زيد. (وفي مقدّمتهم د. عبد الصبور شاهين) ينتمون إلى التعليم الجامعي ويدافعون عن مصالح ومواقف إيديولوجية وعندما فشلوا في محاصرة د. أبو زيد، وفي منعه من الترقية كشفوا عن منطق الساطور الذي يعتمدونه فلجأوا إلي الطعن في عقيدته مع أنّه مؤمن باللّه ورسله وملائكته وهذا تناقض لا يمكن أن يفسّر بخلاف بين مؤمنين و «مرتدّين» وإنما هو واجهة من واجهات الصراع داخل العقل الثقافي المصري منذ بدايات هذا القرن، والذي لم يحددّ بعد الحدّ الأدنى من الاستقلالية»

وإذا كان كل من الأستاذين محمد بنيس ومحمد برّادة قد ركزّا على الجانب الفكري والعقدي في قضية نصر حامد أبي زيد، فإن رئيس اتحاد كتاب المغرب، الشاعر محمد الأشعري، بميولة القانونية، قد ركّز على الجانب المسطري والاجتماعي من القضية. يقول:

«ما أدهشني في هذه القضية هو تركيزها المطلق على تخليص الزوجة من الزوج المرتدّ»[٣].

ويحاول الأشعري أن يفصّل في دواعي هذه الدهشة وأسبابها من الوجهة القانونية والشرعية.

«وممّا يثير في هذه القضية أن الذين رفعوا الدعوى، مثلهم مثل القضاء الذي فصل في القضية، لم يقولوا لنا شيئاً عن الزوجة، هل الدكتورة إبتهال يونس مسلمة يجب تخليصها من مرتدّ. لماذا لم تبادر هي بنفسها كمسلمة إلى رفع دعوى الطلاق؟ هل هي على توافق تام مع أفكار زوجها المحسوبة على الردّة. لماذا إذن نهتم بتطليق مرتدّة من مرتدّ. ونفس استصدار حكم عليهما معاً في قضية عقائدية أوّلاً وقبل كل شيء»

نفهم من كلام الشاعر محمد الأشعري أن قضية نصر حامد أبي زيد انتهاك سافر للحرية الفردية للمرأة العربية المسلمة. إنّ الحكم بتطليق الدكتورة ابتهال يونس من زوجها الشرعي الدكتور نصر حامد أبي زيد، إيذان بالعودة إلى العهد البطريكي، وإلى العهود المظلمة في حياة المرأة العربية. إن مضمون الحكم. يمثل بالنسبة لمحمد الأشعري رسالة موجّهة إلى كل النساء المسلمات ونريد أن «تضع كل نساء المسلمين في عصمة سلطة فوق كل القوانين والعواطف الإنسانية، سلطة تستطيع أن تطلق امرأة من مرتد مفترض وتستطيع أيضاً أن تزوجها لمؤمن مفترض حماية لها من الفاحشة»

ولا يمكن لأيّ مثقف عربي شريف، في عالم عربي لم تندمل، بعد، جروحه التاريخية، إلا أن يتساءل بمرارة عن المصير الذي يساق إليه العالم العربي. فإصدار حكم مضمونه الاعتداء على حرية زوجين بالتفريق بينهما قسراً، هو علامة دالّة على أن زمننا هو زمن «منطق الساطور»، زمن الانهيار الذي لا يستطيع أحدٌ، راهناً، ولهول المصاب، أن يحدّد مداه ولا أن يقيس

قوّته وشساعته. لكن الذي نعيه، اليوم، هو أننا جميعاً نوجد في قلب تيار جارف أخذ العدّة للزحف والانتقام من كل إشراقة قد تضيء ظلام زمننا العربي. إننا في مواجهة فكر لا يطيق النّور، ولا يطيب له العيش إلا داخل كهوف مظلمة. وفي مواجهة إرهاب دولة تقوم أجهزتها على التلفيق والتزييف.

إزاء هذا التحالف السرّي المقيت بين جهازين ردعيين تقليديين هل نكتفي بترديد ما انتهى إليه الشاعر محمد بنيس في معالجته لقضية نصر حامد أبي زيد. «لست أدري أين يسير العالم العربي، ولا أفهم لماذا يظلّ رهين ما هو عليه؟ لا أجد سبباً مقنعاً»؟

أم نراهن على دعوة الدكتور محمد برّادة إلى المواجهة المفتوحة:

«إن محنة الدكتور أبو زيد وزوجته تدق ناقوس الخطر واليقظة من جديد لتنبّه جميع المفكّرين والمثقفين المتنورين في الوطن العربي إلى ضرورة خوض صراع التنوير في كليته وشموليته»

وفي زمن الرداءة، حين تحاصر جميع القوى التنويرية والديمقراطية، لا يبقى أمام المثقف إلاّ الجهر بكلمة الحق وخوض الصراع حتّى النصر.

الدار البيضاء (المغرب)

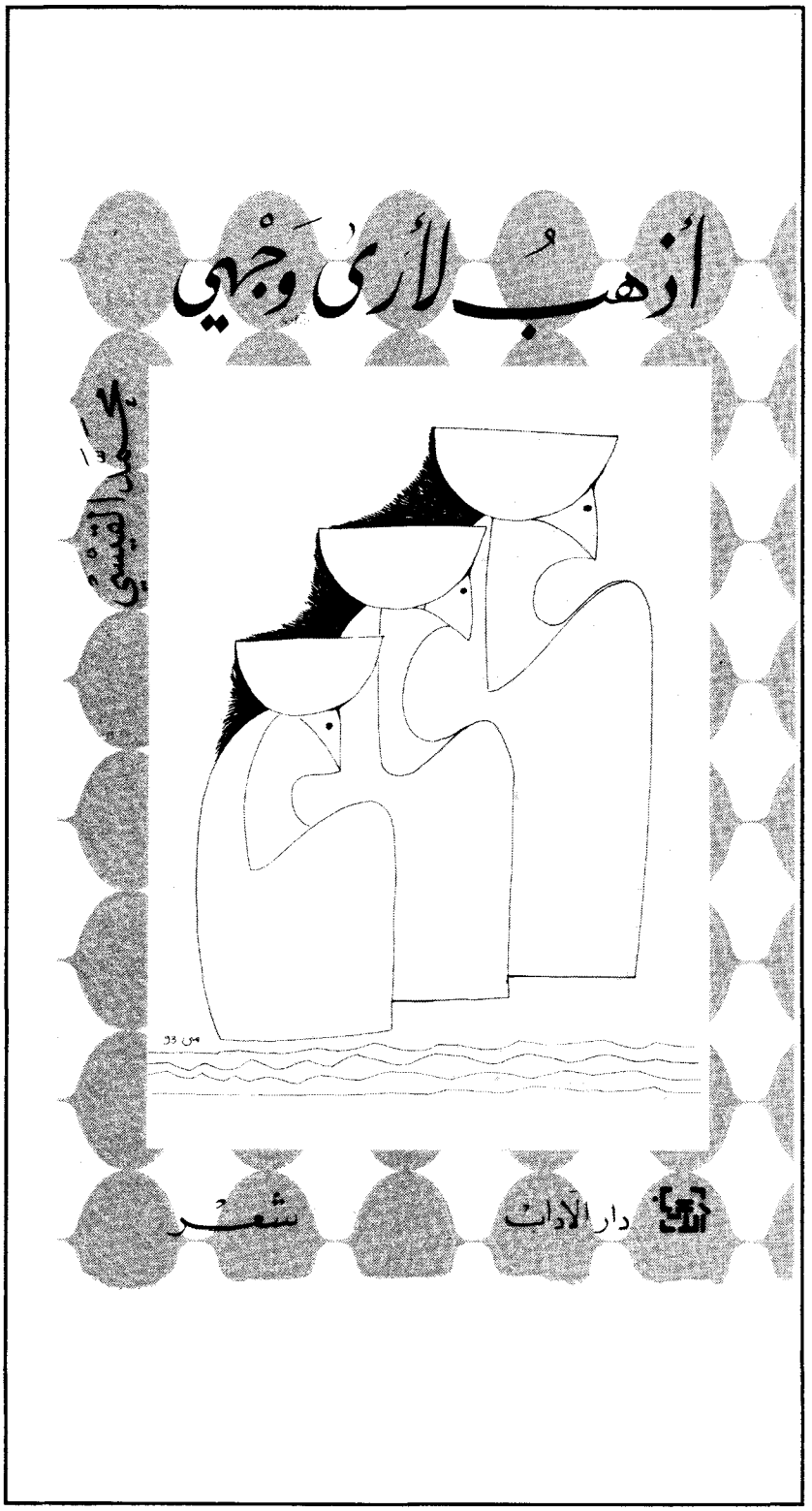

(١) محمد بنيس (جريدة العلم، الملحق الثقافي، السنة ٣٦ تاريخ ٩٥/٧/٨.

(٢) محمد برّادة الاتحاد الإشتراكي العدد ٤٣٤٤/٣/٧/٩٥ كلام برادة في هذه المقالة مقتطف كله من شهادته المنشورة بالجريدة المشار اليها.

(٣) محمد الأشعري: طلّق ثم ناقش (جريدة الاتحاد الشتراكي العدد ٤٣٤٣ ٣ تموز ١٩٩٥.